

تتابع « الاحرار » نشر مختارات من التراث القومي توضح آفاق الثورة العربية المعاصرة والبعث العربي وسائر المشاكل المعقدة والازمات الحادة التي تعيشها الامة العربية ، وذلك من اجل الاستهداء بها لتبيان طريق الخروج من تلك الازمات والقاء مزيد من الضوء على اصولها وفروعها وسلبياتها من اجل ان يكون عملنا ونضالنا محسوبا ومجديا . ونقدم فيما يلي بحثا للاستاذ ميشال عفلق الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي كتبه في آذار ١٩٤٧ :

السلبية في اليقظة العربية

السلبية لا تختلف في الجوهر عن الحالة التي قامت الحركات الوطنية لنقضها

الفرق جوهري بين أن … تراكية كشيء ونؤمن به من أعماقنا لأنه يفصح عن حاجات أصيلة في أمتنا وبين أن نأخذها "كرداء غريب"

ان الحركات التي تنشأ في مجتمع ما ، اما ان تكون سطحية وقتية ، واما ان تكون جدية اصيلة ، وكلا النوعين لا بد ان يتأثر بظروف المكان والزمان المحيطة به ، ولكن هذا التأثر بظروف الزمان والمكان هو الذي يعين نوع الحركة . فاذا تأثرت الحركة تأثرا منفعلا سلبيا استنفد كل امكانياتها وقواها حتى غرقت في ظروفها ، اعتبرناها من الحركات السطحية الآنية العابرة ، واذا استطاعت الحركة ان تتأثر بالظروف المحيطة بها دون ان تغرق فيها بل احتفظت بالسيطرة عليها لتوجيهها ، كانت من الحركات الجدية الاصيلة .

لذا نظرنا الى يقظة العرب الحديثة ، نجد ان الدور الاول الذي مرت به هذه اليقظة تنطبق عليه صفات التأثر المنفعل السلبي ، فكل مظاهر اليقظة ، سواء في السياسة او في الاجتماع او في الفكر انما هي رد فعل لما سبقها من حالة الجمود والانحطاط ، فكأنها تلك قلبا حرفيا الحالة التي قامت لتنفيها وتتمرد عليها . وهذا امر طبيعي ، اذ لا بد ان تمر الامة في دور سلبي في بدء يقظتها وانقلابها ، ولكن الشيء غير الطبيعي ان تستمر اليقظة في سلبيتها وان تبقى رد فعل لما سبقها ، وانها اذا استمرت على هذه الحال ، فان الحكم يصبح قاسيا عليها ويغدو من المشروع ان نعتبرها يقظة مختلقة لا تحوي في نفسها بذور الحياة . اذ لا حياة مع السلبية .

واذا عددنا مختلف الحركات الوطنية التي قامت في الاقطار العربية جوابا على الاستعمار الاجنبي — والحركات الفكرية والاجتماعية قامت كجواب على امراض المجتمع العربي — (كالاقطاعية والطائفية والاقليمية والرجعية والقرابية وغير ذلك) وامعنا النظر في هذه الحركات جميعا ، وجدنا صفة واحدة تجمع بينها على اختلافها وتباينها ، وهذه الصفة هي السلبية .

ونقصد بالسلبية انها لا تختلف في الجوهر عن الحالة التي قامت بها تلك الحركات لنقضها ، فالحركات الوطنية تقلد الاستعمار واساليبه ، والحركات الفكرية المتمردة المتنورة تقلد حالة الجمود في اطلاقها وفي تعصبها وفي تسلطها ، والحركات الاجتماعية التي ثارت على الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتأخر في البلاد العربية حملت طابع السلبية ، اذ خرجت عن نطاق الامة التي تعمل لها ، وشطت في اهدافها وغاياتها حتى خالفت رسالتها والقصد من وجودها .

ان التأثر بالزمان والمكان واقع لا محالة انه شيء لا مفر منه ولا يمكن ان توجد حركة تستطيع التأثير في مجتمع ما دون ان تتأثر بهذا المجتمع نفسه ، ولا وجود للحركات الفكرية المجردة التي تعيش في الفضاء بين الارض والسماء لا تلامس الواقع ولا تتصل به .

اذن ، لا بد للحركة حتى تكون حية من ان تعيش في جو حي واقعي ، وان تفهم مختلف التيارات التي تتحرك في مجتمعها .

ولقد طرقنا مرات عدة في احاديث البعث العربي وكتاباته موضوع التوفيق بين حيوية الحركة وجوهريتها . كيف يمكن ان تكون للحركة جوهرية ، اي نعني بالجوهر الثابت من الامور ، وتكون في الوقت نفسه حركة متجاوبة مع واقعها متصلة مع زمانها .

ان الدور الاول من يقظتنا القومية يمثل هذه الناحية السلبية ، ولكن لا يجوز ان يستمر هذا الدور . فثمة وضع نفسي وفكري للحركة الاصيلة لا يمكن الا ان يكون وضعا ايجابيا . ذلك ان الحركة الاصيلة لا يمكن ان تأتي جوابا على حالة طارئة في الامة ، فالاستعمار حالة طارئة ، والاقطاعية التي هي تفرد فئة من الشعب باستثمار الآخرين والتحكم فيهم حالة طارئة ، والطائفية التي هي تغلب روابط اساسية صبغت حالة طارئة ، والاقليمية التي هي تغلب الصفات الموضعية الثانوية في الاقاليم والاقطار على الصفات القومية هي حالة طارئة . وهذه الحالات كلها سلبية ليس فيها شيء من الحياة ، وانما هي نتيجة ضعف الحياة وتراخيها . ضحلت الحياة فطفت القشور على السطح .

فهل يجوز ان تتصف الحركة العربية المنشودة بهذه الصفات العارضة التي لا تمت الى حقيقة امتنا بصلة ؟

هل يجوز ان تكون نظرتنا الى القيم ونظرتنا الى المستقبل مستوحاة كلها من هذه الحالة المرضية الطارئة ؟ كذلك هل يجوز ان تقوم حركات فكرية اجتماعية على وجود آفات وامراض في مجتمعنا كالطائفية والاقطاعية وغيرهما ؟؟

لذلك كله سميت الحركات التي تنشأ عن الحالات الطارئة ، حركات سطحية ، لانها لا تعبر عن ارادة الامة في الحياة الصفة التي ترنو اليها ، وانما تعبر عن رد فعل آلي في الامة ، عن استمرار وامتصاص من حالات طارئة ، ومثل هذه الحركات لا يكتب لها البقاء .

لو اكتفينا بالنظر الى برامج الحركات والاحزاب القائمة في العالم العربي لخرجنا بطبيعة تشاؤمية ، لاننا لا بد واجدون فيها كلها هذه الصفة السلبية — ولكن شيئا واحدا ينقذنا من التشاؤم : هو ان نلتفت في الوقت نفسه الى الشعب العربي الذي كون المادة لجميع هذه الحركات في نشاطها واعمالها .

ان باستطاعة الحركات المختلفة ان تضع لنفسها البرامج التي تريد وان تتبع الخطط والاساليب التي تفضلها ، ولكن الشعب نفسه لا يجيب جوابا آليا على تلك البرامج والخطط حسب … لما يراد بها . بل هو في حركته … ايجابيا كل الايجابية . فالفرد … في فكرتها وفي مطلب … الواضحة واساليبها الناصعة … الاشياء السلبية ، وليس لها … بناء حياة ايجابية . ولكن … اتساق مع الحركة الوطنية … لم ينحصر في حدود اهدافها … يجتنب افكارها وشعورها . انه … مقاومته للاستعمار الاجنبي … يسعى الى تحقيق شيء … مجتمع عربي ناهض منظم … والمثل العليا من عدل ومساواة … قمة فرق واضح بين ما … وبين الروح التي تحيي في حركته … المساوقة هذه البرامج ، … لو تناولنا اية حركة اخرى … السلبية مثلا انما هي في … والداعين اليها حركة تقوم … سلبية محضة ، على … والخوف والعثر وغير ذلك من … السلبية .

ولكن الشعب الذي يتبع في وقت من الاوقات مثل هذه الحركات التي … بالرجعية لا يتحرك بدوافع … لا يتحرك بدوافع الخوف والكره … واذا نفذنا الى روحه ونفسيته … كل حركة يتبعها نصيبا كبيرا … مهما يكن لون الحركة ولونها … تأييده الحركات الرجعية في بعض … انما يرمي الى المحافظة على … والابقاء على تلك الصلة الحية … بين حاضره وماضيه . ويقصد ان … الانسجام في حياة المجتمع … التي يعيش عليها ويلتحق … عما عن ان مثل هذه الحركات … تعمر . في ضمير الشعب … الى تحقيق مثل عليا سامية . ولكن … كنا نتفاءل بروح الشعب ونشعر بان روحه روح ايجابية تطمح الى البناء والخلق . فهذا لا يعني اننا نستطيع ان نستكين ونستسلم للفكر الناحية المتحركة الضالة .

نحن نشك بأن جوهر الشعب سليم يستقبل للعمل الايجابي المبدع ، ولكن متى انتبهنا الى خطل الفكر الموجهة له ، علينا ان نحل ذلك وان نخاطب الشعب لنفهمه الصواب من الخطأ .

ان الذين تتبعوا حركة البعث العربي في الناحية الفكرية على الاقل ، وذلك فيما صدر عنه من كتابات يستطيعون ان يلاحظوا منذ بدء الحركة اهتمامنا البالغ بان نجعل من حركة البعث الخطوة الايجابية التي يجب ان تأتي بعد الخطوة السلبية .

ونحن كأبناء هذه الامة وهذا المجتمع نتأثر به ونشعر بتياراته فقد شعرنا كما شعر الكثيرون ان الحل لم يأت بعد ، وان الامة في موقف انتظار ، وان طريق الامة لا يمكن ان يكون سلبيا ، لان كلمة الامة الاخيرة لا يمكن ان تكون بالنفي ، وانه يجب ان تأتي اخيرا الكلمة الايجابية التي تقول لنا كيف يجب ان نعيش وكيف يجب ان نبني حياتنا ومجتمعنا .

لذلك كانت الناحية السياسية منطبقة الى مرحلة تعلو على الحركات الوطنية السابقة في العالم العربي ، وهذا للبناء قد كتبت مرارا . لاننا لم نرض لانفسنا في وقت من الاوقات ان نكون رد فعل للحماية او الاستعمار بل وضعنا امامنا الحركات الوطنية التي نعلو عليها ونرتفع الى درجة اعلى ، ولنحميها من امراض التشبه بينها وبين حالة الاستعمار والحماية . وكنا نقول في مناسبات عديدة اننا نؤمن بأن الوطنية يمكن ان تطمح ويجب ان تنسجم مع النزاهة والكفاءة ، لا ان تكون منسجمة — كما هي الآن عند القيادة القديمة — بصفات بارزة طاغية عليها ، هي صفات الاستعمار والاستغلال والجبن . اما من الناحية الفكرية فقد ابدا نرى ان الخطوة المنشودة لم تظهر . الخطوة التي تنتصر على المحتلين السابقين ، على الجمود والمحافظة ، على الرجعية وعلى التقسيم السطحي المتعثر الذي يخرج المواطن عن قوميته وروحه وتاريخ امته . ذلك التقسيم الذي نحمله منذ سنوات بالتقسيم المصطنع ، انه لا تتوفر له شروط الحياة التي ترضاه روح الامة . واننا كان بعضنا يذكر تلك الفترة التي جاء فيها منذ اربع سنوات اننا نمثل التاريخ العربي الذي هو الرجعية ، امة ، والتقسيم المصطنع ، فان ذلك كان يعبر عن موقفنا الايجابي .

اننا نريد ان نحدد المسألة التي ترتاح اليها نفس الامة وينتعش الجسم والتي تنفي انحرافين : انحراف الجمود والمحافظة البالية وانحراف التقسيم المصطنع الطائش الذي يعيش في جو غير جونا ولا يمكن ان يؤثر فينا ويقدم لنا النفع والخير . كذلك من الناحية الاجتماعية الاقتصادية ، وهي من اهم النواحي التي يجب ان تعنى بها الحركة القومية . علينا ان نلتفت ونتطلع الى الحل الذي يتفق مع حاجة الامة الايجابية . فهناك حالة مرضية في مجتمعنا ، هي حالة تحكم فئة قليلة بكثرة الشعب ، انها حالة الاقطاعية والاستغلال .

وقد سبق تعرفنا بهذه الناحية الحية الى اتجاه الحل الايجابي الى الاشتراكية العربية التي تداوي امراض المجتمع العربي من الناحية الاقتصادية ولا تسخره الى الفكر لوسيلة فقط سلبيته وتخلص شخصيته . وهنا لا بد من ان اذكر ملاحظة لها بعض الخطورة . وهي اننا نرى فيما حولنا كثيرا من الحركات التي لا تتصف بشيء لانها لا تتصف بالعمق . انها تلبس في حسب الشعب العربي . انها لا تمس المسؤولية التي يفرضها تطلعها الينا ، بل تعيش لتستغل العواطف الطارئة ، نراها تتبنى كل يوم فكرة او دعوة ، وتنشى وتنتشر . فمن مثلا ضمنا لدعوة الحر منشئا فكرة سطحية وفرد الرأي الرائج في وقت من الاوقات ، تتبنى الدعوة الاشتراكية وتتحلى بما ليس من صفاتها . كل المسألة جمع وتراكم حولي هنا خطر عظيم على مستقبل حركتنا القومية .

الفرق جوهري بين ان نأخذ الاشتراكية كشيء نؤمن به من اعماقنا لانه يفصح عن حاجات اصيلة جوهرية في امتنا ، وبين ان نأخذها ، كزي حسن ، ومسايرة كي لا يقال لنا الطامعين او رجعيين او لكي لا تسبق الحركة الشيوعية وتأخذ انصارنا ومريدينا .

الموقفان متناقضان لا بل متعاكسان . اما الموقف الايجابي — وهو الموقف الذي نقف منه الا الذي انا نؤمن بصحته وتحسب وضرورته وضد ذلك يكون دفاعنا واخلاصنا له من النوع المبدع . لا من نوع دفع التهمة ودرء الخطر . ومن المؤسف ان تكون مثل الفكرة الاشتراكية وغيرها من الافكار التي هي من صميم الفكرة العربية في العالم العربي كله ، الى الآن هذا الحال ، اي انها لم توضع موضع قناعة ولا ايمان ، وانما مسايرة ومنعا لتهم الخصوم وتمشيا مع ضرورات الوقت في حين ان لها حاجة قاهرة تحيا بالعرب وخاصة بالشباب العربي ، الذي يكون الطليعة في حركتنا العربية . بان ننظر الى قضية امته نظرة اكثر جدية .

فافكارنا واهدافنا لا يمكن ان تمس بهذا الدافع التافه ، دافع السيطرة والتسلط من جهة والرد عليه من جهة اخرى . يجب ان تمس افكارنا واهدافنا جميع الحاجات الاساسية التي نشعر بها ونلمسها ونحن نعيش بعد الحرب والتخلف والتبعية .

كذلك يلاحظ … في موقفنا من الموقف السائد في العالم العربي ما يسمى حقوق الانسان — في تصريحات الرجال الرسميين — رجال الحكومات والساسة وزعماء الحركات السياسية والاجتماعية — و… رجال الفكر ايضا . لم تبين موقفا جديا ايجابيا من هذه الخطيرة . وكل ما هنالك انا نذكر موجها الى الغرب على انه … لا تحترم حقوق الانسان … ، ونحن لا نزال مستعمرين ولا نؤمن بفكرة الحرية ولا بفكرة حقوق المواطن والشعب في السيادة والمساواة ولا نؤمن بحرية الفكر والاعتقاد .

ولذلك نرى من الرجال الرسميين والزعماء السياسيين ، وحتى كثير من رجال الفكر جوابا على هذه التهمة … ولكن لا تمس … القناعة … الوطنية .

فنحن حتى الآن نقف من حقوق الانسان السياسية والاجتماعية . هذه الحقوق التي ان كان لها منبع اصيل حقيقي فهو منبع الحضارة العربية والروح العربية السمحة … موقفا سلبيا . فاننا نحن نذكر لها في الوضع الحاضر ونفتش من لهجة الغربيين لنا بانا لا نقيم لها وزنا . فلذلك نتظاهر بمسايرتها … ولا نشعر لها … من حرية ، وكل حملات الشخصية والخطابية … بالكلمة على ذلك .